الصورة الدينية المذهبية في رحلة ناصر خسرو الفارسي وابن جبير العربي

حسين علي حسون
طالب دكتوراه، جامعة بوعلي سينا، كلية العلوم الانسانية، اللغة العربية وآدابها/تخصص/ترجمة ودراسات مقارنة
H07830719688@gmail.com

علي سعيداوي
أستاذ مشارك، جامعة بوعلي سينا كلية العلوم الانسانية، قسم اللغة العربية/تخصص/ترجمة
alisaidawi@yahoo.com

سيد مهدي مسبوق
أستاذ مساعد، جامعة بوعلي سينا، كلية العلوم الانسانية، قسم اللغة العربية/تخصص/الأدب الوسيط والدراسات المقارنة
smasboogh@yahoo.com

الكلمات المفتاحية: الرحلة، الأدب، الدين.

كيفية اقتباس البحث

حسون ، حسين علي ، علي سعيداوي، سيد مهدي مسبوق، الصورة الدينية المذهبية في رحلة ناصر خسرو الفارسي وابن جبير العربي، مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، نيسان ٢٠٢٤،المجلد:١٤ ،العدد:٢ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

The sectarian religious image in the journey of Nasir Khusraw the Persian and Ibn Jubair the Arab

Hussein Ali Hassoun
PhD student, Bouali Sina University, Faculty of Humanities, Arabic Language and Literature Specialization / Translation and Comparative Studies

Ali Saidawi
Associate Professor, Bouali Sina University, Faculty of Humanities, Department of Arabic Language/Specialization Translation

Seyyed Mehdi Mabrouk
Assistant Professor, Bouali Sina University, Faculty of Humanities, Department of Arabic Language Specialization / Medieval Literature and Comparative Studies

Keywords : the journey – literature – debt.

How To Cite This Article
Hassoun, Hussein Ali , Ali Saidawi, Seyyed Mehdi Mabrouk, The sectarian religious image in the journey of Nasir Khusraw the Persian and Ibn Jubair the Arab, Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, April 2024,Volume:14,Issue 2.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract :

This research addresses “the sectarian religious dimensions in the journey of Nasir Khusraw” and “Ibn Jubayr”, as it targeted travel literature as a stand-alone literary genre with its own artistic and intellectual features and characteristics, as it attempts to highlight the motives of the journeys, and focus on the manifestations of the religious dimensions in the journey, by examining Some religious landmarks and symbols and various customs and rituals that caught the attention of travelers in the various countries he visited, in addition to highlighting the

sectarian dimension, and pointing out customs as a social manifestation that forms a special image for each society, especially on religious occasions.

The manifestations of the sectarian image and its formations in the journey of Nasir Khusraw and Ibn Jubair are many. This research attempts to study these manifestations by identifying the features of the sectarian image of each traveler in his country and at the end of his journey, and its geographical, political and social signs and economic and cultural effects according to the writer's observations during his journey.

The journey of Nasir Khusraw and Ibn Jubayr was motivated by religious and ideological motives, and therefore the image that resulted from these two journeys was essentially a religious image, leading to other images. This enables us to form a comprehensive picture of the sectarian image of each traveler and the sectarian image of the other.

The study combines the narrative layers with the artistic approach, and every other topic within it. It stops with the flight of his story, including its inclusion of events and observations, and the journey is a book that has a narrative sequence, especially the expansive place from the starting point to the end, as well as the artistic finishes and photographs of the self and the sectarian other.

In two journeys there is a longitudinal religious description that starts from the starting point until it reaches the end point or final destination, which is the country of Hijaz, to perform the Hajj on the one hand, and then get to know the manifestations of the cities and cities on the other hand.

The research uses historical and descriptive analytical approaches to clarify the various social, religious, and sectarian phenomena included in the trip.

ملخص :

هذا البحث يعالج "الأبعاد الدينية المذهبية في رحلة ناصر خسرو" و "ابن جبير"، حيث استهدف أدب الرحلة كجنس أدبي قائم بذاته له مميزاته وخصائصه الفنية والفكرية، إذ يحاول إبراز بواعث الرحلات، والتركيز على تجليات الأبعاد الدينية في الرحلة، من خلال الوقوف على بعض المعالم والرموز الدينية ومختلف العادات والطقوس التي استرعت انتباه الرحالة في مختلف الأقطار التي زارها، بالإضافة إلى تسليط الضوء على البعد المذهبي، والإشارة إلى العادات كمظهر من المظاهر الاجتماعية التي تشكل صورة خاصة لكل مجتمع، خاصة في المناسبات الدينية .

أن تجليات الصورة المذهبية وتشكلاتها في رحلة ناصر خسرو وابن جبير كثيرة، يحاول هذا البحث دراسة تلك التجليات من خلال الوقوف على ملامح الصورة المذهبية لكل رحالة في بلده وانتهاءً برحلته ،وما بها من إشارات جغرافية وسياسية واجتماعية واثار اقتصادية وحضارية وفق مشاهدات الكاتب خلال رحلته.

فرحلة ناصر خسرو وابن جبير كانت بوازع ديني عقائدي ولذلك الصورة التي نتجت عن هاتين الرحلتين كانت صورة دينية في الاساس، وصولاً إلى صور اخرى؛ مما يتسنى لنا تكوبين صورة كلية عن الصورة المذهبية لكل رحالة والصورة المذهبية للآخر .

وتزاوج الدراسة بين الطبقات السردي والمنهج الفني ،ولكل موضوع اخر داخلها. فتتوقف مع طيران حكايته بما في ذلك تضمينه من الأحداث والمشاهدات، والرحلة كتاب له تسلسل سردي وخاصة المكان الامتدادي من نقطة الانطلاق الى الانتهاء ،و أيضًا التشطيبات الفنية والصور الفوتوغرافية للأنا والآخر المذهبي.

ففي لرحلتين الوصف الدينية الطولي الذي يبدأ من نقطة المبدأ حتى يصلى الى نقطة النهاية او المقصد النهائي وهي بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج في جهة، ومن ثم التعرف على تجليات المدن والامصار من جهة اخرى.

ويستعين البحث بالمنهجين التاريخي والوصفي التحليلي لاستجلاء مختلف الظواهر الاجتماعية والدينية المذهبية التي تضمنتها الرحلة.

١ –مقدمة:

أدب الرحلة يعد من المصادر المهمة التي تثري المعرفة الإنسانية، وتمكن الإنسان من الاطلاع على مختلف الظواهر الاجتماعية والثقافية لدى الشعوب والمجتمعات، لاسيما وأن أدب الرحلة فن أدبي متميز قائم بذاته، كونه يؤدي وظيفة فنية وفكرية جليلة، تقوم على وصف وتصوير الحياة والعالم من خلال ما يشاهده الرحالة من العوالم الواسعة، والمشاهد اللافتة للانتباه أثناء الرحلة، غير أن الرحالة لا يكتف بالوصف والمشاهدة بل يستقرأ أحوال الشعوب ويتعرف على ثقافاهم وتقاليدهم وطرق تفكيرهم، وينقل للقارئ أدق التفاصيل التي عاينها في المجتمعات التي زارها بلغة تبرز الخصائص الثقافية والاجتماعية السلوكية التي يميزها كل مجتمع عن آخر، ونظرا لما يحتويه أدب الرحلات من مادة معرفية شاملة ودسمة، تمثل رحلة ناصر خسرو أنموذجا مهما من الرحلات المتميزة، لذلك وقع اختياري على رحلة ناصر خسرو التي عدها الكثير من الدارسين بأن "أحسن ما ألف في الرحلات الى الحج لما تميزت به من مستوى أدبي رفيع"...(سعد ،١٩٦١، ١٠٩)، وكذلك مضامينها الفكرية التي لم تنل حظا وافرا من الدراسة

والتمحيص، وبناء على هذا الأساس يهدف البحث للإجابة عن إشكال أساسي تمثل فيما يأتي: ماذا نقصد بأدب الرحلة؟ وما هي القيمة العلمية والأدبية التي تميزها؟ وفيما تتمثل أهم الأبعاد الدينية والاجتماعية التي سعى ناصر خسرو إلى عرضها في رحلته؟.

ولمعالجة إشكالية البحث اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي الذي يتخلله المنهج التاريخي، الذي يتناسب مع طبيعة الموضوع.

وتمثلت أهداف الدراسة فيما يلي:

-إماطة اللثام عن الأبعاد الدينية المذهبية في رحلة ناصر خسرو وابن جبير.

-الكشف عن القيمة العلمية والأدبية لأدب الرحلات ودورها في خلق جسور التواصل بين مختلف الشعوب والمجتمعات.

٢ -ناصر خسرو:

ولد ناصر سنة (٣٩٤هـ/١٠٠٣م) في بلدة من أعمال بلغ وتأدب أحسن تأدب. وقام في شبابه بأسفار عديدة في أنحاء إيران وتركستان والهند وبلاد العرب، ثم استقر في منصب كبير في ديوان السلاجقة بمدينة مرو. وظل يعيش ترف وبطالة حتى سنة (٤٣٧هـ/١٠٤٥م)؛ فنراه يضحي بمنصبه ويبدأ حياة جد وسفر وعلم وتقوى. وهو يذكر في كتاباته أن السبب في هذا التحول رؤيا ظهر له فيها شيخ طلب إليه أن (ناصر خسرو. د.ت، ٧)يكف عن شرب الخمر وعن حياة اللهو والمجون. فسافر لتأدية فريضة الحج وقام برحلات طويلة في الشرق الأدنى بين عامي (٤٣٧-٤٤٤هـ/١٠٤٥-١٠٥٢م).

ولما عاد إلى وطنه كان قد ترك مذهبه السني، وأصبح من أشد دعاة الإسماعيلية والمتعصبين للفاطميين. ولا عجب فإنه غادر إيران في وقت انتشرت فيه الاضطرابات، واشتد النزاع بين أمراء الأقاليم المختلفة، ورأى نفس البؤس في البلاد التي زارها ما خلا مصر، فقد وجد فيها رخاءً عظيمًا وأسواقًا عامرةً وتحفًا فنية نادرة وهدوءًا شاملًا. وظن ناصر خسرو أن الفضل في رخاء وادي النيل، إنما يرجع إلى الدولة الفاطمية ومذهبها الإسماعيلي(حسن. ١٩٣٧، ١٠)، وأن هذا المذهب كفيل بإنقاذ العالم الإسلامي؛ فلم يلبث ناصر أن اتصل ببعض رؤساء الشيعة الإسماعيلية في مصر. والظاهر أن الخليفة المستنصر بالله أحسن استقباله وكلفه بأن يدعو لمذهب الإسماعيلية في خراسان. ولكن السلاجقة لاحظوا خطر هذه الدعوة فاضطهدوا ناصر خسرو، واضطروه إلى الفرار إلى بلاد ما وراء النهر، حيث توفي سنة (٤٥٣هـ/١٠٦١م).

وخلف هذا الرحالة وصفًا دقيقًا لرحلته يحمل على القول بأنه كان يدون مشاهداته أولًا فأولًا وأنه كان يعنى بالاتصال بالشعوب التي يمر بها، ويتفهم مظاهر الحضارة التي يشاهدها. وحسبنا

أن نشير هنا إلى وصفه مدينة القاهرة، وكلامه عن حضارة مصر في عصر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، وعنايته بدراسة الأعياد والحفلات والصناعات والفنون والأسواق، وإلى وصفه الحرم الشريف بالقدس.

وقد ترجمت رحلة ناصر خسرو إلى الفرنسية. وأصبحت مصدرًا أساسيًّا في دراسة الحضارة الإسلامية في الشرق الإسلامي في القرن الخامس الهجري، والحق أن وصف مصر في رحلة ناصر خسرو يعد من أكثر المصادر التاريخية إمتاعًا وأعظمها شأنًا في بيان حال البلاد قبل القحط أو «الشدة العظمى» التي حلت بها في نهاية عصر الخليفة المستنصر.(حسن. ١٩٣٧، ١٦)

ولا عجب فإن هذا الرحالة لم يكن سائحًا عابرًا؛ بل أقام في مصر نحو أربع سنوات ودون مشاهداته بدقة وإسهاب، فوصف الحياة العقلية وتحدث عن الأزهر ودار الحكمة وجامع عمرو، وعن العلماء والفقهاء ودعاة الفاطميين.

واستطاع أن يدرس الحياة الاجتماعية عن كثب. فذكر مثلًا أنه لم يعرف بلدًا يستمتع بمثل ما ظفرت به مصر من الأمن والهدوء، وأن الصناع والعمال فيها يمنحون أجورًا مرضية، فيقبلون على العمل بسرور وانشراح، على عكس ما في الأقطار الأخرى من السخرة وما إلى ذلك؛ كما أن مرتبات القضاة كانت كبيرة جدًّا، ليتم الاطمئنان إلى عدالتهم وبعدهم عن المؤثرات المختلفة ولتقل حاجتهم إلى الناس.

٣-ابن جبير:

هو أبوالحسين محمد بن أحمد الكناني ، الأندلسي، الطالبي البلنسي (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧م). ولد في بلنسية وسمع من أبيه ومن أبي عبدالله الأصيلي، وأبي الحسن بن أبي العيش، وأخذ عنه القراءات وعني بالأدب وبلغ الغاية فيه وتقدم في صناعة القريض والكتابة بثلاث رحلات. خرج في الرحلة الأولى سنة ٧٩٠هـ.. من غرناطة إلى سبتة ومنها ركب البحر إلى الإسكندرية ثم توجه إلى مكة، فحج وزار المدينة والكوفة وبغداد والموصل وحلب ودمشق ثم إلى مقلة عائدا إلى غناملة عام ٥٨١ هـ.(ابن جبير،٢٠٠٠: ٤)

البعض اعتقد ان الاحداث متسلسلة والبعض اعتقد انها رسائل جمعت على شكل رحلة. وقد استغرقت رحلته سنتين سجل فيها مشاهداته وملاحظاته بعين فاحصة في يومياته المعروفة برحلة ابن جبير ثم تبع هذه الرحلة رحلة ثانية وثالثة (العفيفي، ٢٠١٠: ٢٨٧).

٤-مفهوم أدب الرحلات:

يعد أدب الرحلات من الفنون الأدبية التي حظيت باهتمام كبير من طرف الدارسين والأدباء، نظرا لمميزاته الفنية ومضامينه الفكرية والمعرفية التي يزخر ا، وذلك ما أدى إلى اختلاف وجهات النظر إلى هذا الفن، فنجد صاحب معجم "المصطلحات العربية في اللغة والأدب " يعرفه بقوله:" إن أدب الرحلات مجموعة من الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلدان مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وتقاليد وسلوك وأخلاق وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي شاهدها، أو سرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد"(مهندس ،١٩٤٨، ١٦).

نلمح من خلال هذا القول أن أدب الرحلة من الفنون الأدبية، التي يحرص فيها الرحالة على نقل ثقافة البلدان التي ارتحل إليها بكل ما تحويه من عادات وأخلاق، يضاف إلى ذلك رصد مختلف المشاهد المميزة لتلك البلاد وطبيعتها الجغرافية، وظروفها المعيشية، مازجا ذلك كله بانطباعاته الذاتية.

كما يتلاءم مع هذا الرأي ما أكده الباحث" عبد النبي ذاكر "في وصفه لأدب الرحلة بأنه "شكل أدبي هجين ينماز بتعدد أوجهه وتمظهراته إلى حد أنه يمكن القول أنه جنس متكامل يحطم قانون صفاء النوع، وذلك بإدماجه أنماطا خطابية متنوعة من حيث الأشكال والمحتويات، الشيء الذي يعطي الانطباع بأنه شكل مائع ومرن إلى حد كبير"(الموافي ،١٩٩٥، ٤٩). ومن هنا يتبين أن أدب الرحلة جنس أدبي يتسع لاحتواء مختلف المضامين الفكرية والفنية بطريقة تتسم بالمرونة.

٤-بواعث الرحلات:

ترتبط الرحلة بتحقيق غاية وهدف، وهو ما يجعل الرحالة يتحمل في سبيله المشاق والمصاعب، فتعددت بذلك الدوافع والحوافز التي شجعت على ممارسة هذا النشاط، فاختلف من فرد لآخر، ومن فترة لأخرى(ذياب ،٢٠٠٦، ٦٠)، لذلك نجد في مقدمة هذه الدوافع الدافع الديني، الذي يقترن أساسًا بأداء مناسك الحج، إضافة إلى الدوافع العلمية التي كان الغرض منها اكتساب المعارف والاحتكاك بالعلماء، كما شكلت الدوافع السياسية هي الأخرى أحد أهم بواعث الرحلة؛ من خلال البعثات والوفود التي سعت لتوطيد العلاقات بين الدول وتوسيع شبكة العلاقات، كما يندرج ضمن البواعث أيضا الباعث التجاري الذي أدى إلى تطور التجارة واتساعها إلى توسيع آفاق أدب الرحلة(قنديل ،٢٠٠٢، ١٩، ٢٠).

يُضاف إلى ذلك الباعث السياحي، الذي يحتل أهمية كبيرة في أدب الرحلات، فالرحالة يسعى في كثير من الأحيان إلى تلبية رغباته النفسية المفعمة بحب الاطلاع، واكتشاف المعالم السياحية في مختلف البقاع والأصقاع التي ينزل ا، لاسيما "أنّ السياحة تولد شغفًا كبيرا لجوب الآفاق والسعي لارتياد البعيد وامتطاء أجنحة الريح حبا في المغامرة والترويح عن النفس، وقد امتدت الرحلة لتتجاوز ركب الحُجّاج أو المهام الرسمية أو طلب العلم، فينتهز الراحل الفرصة مدفوعًا بروح المغامرة والاستكشاف"(الشوابكة ،٢٠٠٨، صفحة ٩٥). من هذا المنطلق؛ كانت بواعث الرحلات متنوعة ومختلفة باختلاف الأغراض الإنسانية.

٥- الصورة الدينية المذهبية في رحلة ناصر خسرو:

البعد الديني: يمثل الدين ركيزة من الركائز الأساسية التي تساهم في تكوين شخصية الإنسان وضبط سلوكه وتوجيه تفكيره " لذلك فالنظم الدينية موجودة في كل المجتمعات الإنسانية، لأنها تسد حاجات اجتماعية هامة ،فالدين يدفع الأفراد إلى تغليب مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد، كما أن الدين يؤدي دورا هاما في تكامل المجتمع عن طريق شعائره التي تحمي النسيج الاجتماعي من التمزق"(لطفي، د.ت، ٩٣)، ونظرا لأهمية الظاهرة الدينية لدى المجتمعات، اهتم ناصر خسرو بنقل جميع المشاهد والمعتقدات والأماكن المقدسة التي شدت انتباهه في مختلف البلدان التي ارتحل إليها، سعيا منه لإبراز ثقافات الشعوب والإشارة إلى مواطن التقائها واختلافها، حيث قدم لنا مجموعة من الصور الدينية التي نالت إعجابه، وتمثلت في بعض الشخصيات والرموز الدينية، وبعض العادات التي تعبر أخلاق المجتمعات.

٥-١ -صورة الدولة الفاطمية وملوكها ومآثرها المذهبية:

تعد هذه المرحلة من المراحل المهمة في حياة ناصر خسرو لما يشده من الارتباط ولما كان يعيشه من التعلق والانتماء المذهبي بتلك الدولة وتعد مصر من الدول التي نالت إعجاب ناصر خسرو في رحلته، حيث تجول في شوارعها واستطلع أحوالها، فأعجب إعجابا شديدا، وأرجع، الفضل إلى رقيها وازدهارها إلى حكامها ،" الذين كانوا مثالا يحتذى به في خدمة الدين الإسلامي والدفاع عن محارمه وتعظيم شعائره، ومن المشاهد التي تعبر عن قوة الدولة آن ذاك حسب ما ذكر ناصر خسرو في سياق حديثه عن اهتمام السلطان العلماء و بطلبة العلم الغرباء المتوافدين من مختلف الأقطار النائية، حيث يقول:" واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ،ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم وخدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون لها من علاج وغذاء"..(ناصر خسرو، د.ت، ١٥).

ومن النماذج التي تعبر عن شجاعة هذا السلطان وعدله، ما أشار إليه الرحالة في معرض حديثه عن المغارم والمكوس التي كانت تفرض على الحجاج أثناء نزولهم في الموانئ فتؤرقهم، ويتجلى ذلك في قوله: "ومن مفاخر هذه الدولة المقربة من الله تعالى وآثاره التي أبقاها ذكرا جميلا للدين والدنيا إزالته رسم المكس المضروب وظيفة للحجاج...وكفى الله للمؤمنين على يد هذا السلطان حادثا عظيما وخطبا أليما"(ناصر خسرو ،د.ت، ٣٠- ٣١).

نستشف من هذا المقطع صورة إيجابية قدمها الرحالة "ناصر خسرو" عن السلطان الذي سن سننا محمودة، كان لها كبير الأثر في تخفيف العبء والمشقة عن أفواج الحجاج المتوافدين إلى المشرق الإسلامي لتأدية شعيرة الحج وطلب العلم في ظروف يسودها الأمن والطمأنينة النفسية.

٥ -٢ -صورة العادات الدينية عند خسرو:

ذهب ناصر خسرو في رحلته إلى رصد مختلف العادات الدينية التي وقعت عليها عينه في البلدان التي شد الرحال إليها، ومن الطقوس الدينية التي استرعت انتباهه، ما ذكره عن أهل دمشق في جنائزهم فنجده يقول:

"ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلدان رتبة –احتفالات–عجيبة، وذلك أنهم يمشون أمام الجنائز بقراء يقرأون القرآن بأصوات شجية وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا..."(ناصر خسرو، د.ت ، ٢٦٧).

فهذه الصورة الحزينة التي يقدمها ابن جبير تعكس رهافة الحس ورقة الطباع ومتانة الأخوة التي يتمتع بها أهل دمشق، ومدى تعاطفهم مع بعضهم البعض في أوقات المحن والمصائب التي تحل بهم.

كما يذكر الرحالة في رحلته بعض العادات التصرفات التي نالت إعجابه عن أهل دمشق أثناء تأديتهم للصلاة فيقول: "وإذا سلم الإمام وفرغ من الدعاء أقبلوا عليه بالمصافحة، وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره، فيتفرقون عن مجلس مغفرة بفضل الله عز وجل، ويدعو بعضهم لبعض ن وتلك طريقة حسنة ينفعهم الله بها لما فيها من تعاطي الدعوات وتجديد المودات، ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضا رحمة من الله تعالى ونعمة"(ناصر خسرو، د.ت ، ٢٦٩).

كما تجدر بنا الإشارة لبعض العادات الحميدة التي نقلها ناصر خسرو عن أهل المشرق، لاسيما في خدمتهم لقوافل الحجاج القادمين من مختلف الاماكن، حيث يقول معبرا عن هذا المشهد بإعجاب:

"ومن عظم أمر المشارقة تعظيمهم للحجاج، فهم يتمسحون بهم عند صدورهم، ويتهافتون عليهم تبركا بهم ...وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال"(ناصر خسرو، د.ت، ٢٥٩).

يظهر "ناصر خسرو" في هذا القول إعجابه الشديد بالمشارقة، ونبل أخلاقهم وحسن صفا م، خاصة في خدمة الغرباء والحجاج المتوافدين إلى بلادهم، فيشعر الغريب وكأنه من أهل تلك الديار.

ومن المشاهد التي ذكرها ابن جبير عن بعض القبائل اليمنية التي تعرف بالسرو، أثناء تأديتهم للصلاة في البيت الكريم، قوله: " وأما صلاتهم فلم يذكر من مضحكات الأعراب أظرف منها، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم فيسجدون دون ركوع وينقرون بالسجود نقرا، ويلتفتون يمينا وشمالا التفات المروع ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد، وربما تكلموا في أثناء ذلك"(ناصر خسرو، د.ت،١١٢)

يتضح من خلال هذا القول أن ابن جبير يتعجب من هذه الأحوال العجيبة الغريبة المتمثلة في هذه السلوكيات التي يقوم به أفراد هذه القبائل اليمنية في صلاتهم، وذلك يعد أمرا غريبا منافيا للدين.

٥ -٣ -صورة غير المسلمين في رحلة خسرو:

لم يكتف ناصر خسرو، حين ارتحل من الأندلس إلى المشرق الإسلامي، بنقل المشاهد والعادات الشرقية ،لكن غايته كانت أكبر من ذلك؛ لذلك نجده اهتم بالآخر المختلف عنه في المعتقد والمرجعية الدينية، حيث صوّر ثقافته وعاداته وطريقة تعامله مع الآخر، وتوصّل إلى إصدار أحكام نقدية تتراوح بين الإيجاب والسلب ،انطلاقا من معاينته المباشرة لعادا م، وتفقده لأحوالهم.

ولعلّ الصورة السلبية التي تشكلت في ذهن ناصر خسرو عن غير المسلمين كان مردها إلى بعض التصرفات والمعاملات المسيئة للدين الإسلامي، والمسلمين بوجه عام، ويظهر ذلك في سياق حديثه عن مدينة عكّة، التي انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين، فيقول: "وهي قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط الجواري والمنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة،... سككها وشوارعهاُ تغص بالزحام، وتضيقُ فيها مواطئ الأقدام تستعرُ كُفرا وطغيانا ،وتفور خنازير وصُلبانا، زفرة قذرة، مملوءة كلها رجسًا واقذار، انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين فعادت مساجدها كنائس"(ناصر خسرو، د.ت، ٢٧٦).

يتأسّف ناصر خسرو على الوضع البائس الذي آلت إليه هذه المدينة الإسلامية "في بلاد الشام"، التي اغتصبها هؤلاء الكفرة ،فعاثوا فيها فسادًا وطغيانا واعتداءً على مساجد المسلمين، واحتلالًا لبعض المواقع المقدسة فيها وتحويلها إلى كنائس.

وفي السياق ذاته، يشير ناصر خسرو إلى الصليب الذي عدّه رمزا للاعتداء والسلب والطغيان، الذي امتدّ سلطانه بكلّ وحشية على أراضي المسلمين، وفي هذا الشأن يقول ابن جبير: "فمدينة عكّة دمّرها الله وأعادها أصبحت زفرة قذرة مملوءة كلها رجسًا وعذرة... فحفظ الله هذه البقعة من رجس الكفرة"(ناصر خسرو، د.ت ، ٢٩٦).

اقترن ذكر مدينة عكّة عند ابن جبير باللازمة الدعائية: "دمّرها الله"، وتلك إشارة واضحة لحالة الطغيان والكفر المهيمن على هذه البلدة، التي اغتصبها النصارى من بين أيدي المسلمين، واتخذوها موطنًا لهم في المشرق ،دون مراعاة للحس الإسلامي.

كما أشار ابن جبير إلى مدينة مُسينة من جزيرة صقلية، أعادها الله تعالى، ففي هذه المدينة تتجلى لنا العلاقة المتوترة والمتأزمة بين المسلمين والنصارى، وألمح ابن جبير إلى ذلك في قوله: "هذه المدينة موسم تجار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، مظلمة الآفاق بالكفر، لا يقرّ فيها لمسلم قرار، مشحونة بعبدة الصلبان تغص قاطنيها، وتكاد تضيق ذرعا بساكنيها، موحشة لا توجد لغريب أنسا"(ناصر خسرو، د.ت، ٢٩٦).

يصور ناصر خسرو تلك العصبية الدينية المقيتة التي يتحلى ا النصارى تجاه المسلمين والغرباء في هذه المدينة ،فالغريب فيها لا يحسّ بالطمأنينة والأمن والمسلم يجد صعوبة كبيرة في العيش فيها بسبب الكفر المهمين على شوارعها، إضافة إلى الآلام والمعاناة النفسية التي لحقت م جرّاء ظلم عبدة الصليب الإفرنج لهم.

لم يقتصر ابن جبير على ذكر المشاهد السلبية التي لاحظها عند غير المسلمين، لكنه لمح بعض الجوانب الإيجابية التي نالت إعجابه، ورأى أنها تستحق الذكر، ويظهر ذلك أثناء حديثه عن فكرة التعايش والتسامح بين الأديان، مشيرًا بذلك إلى مواطن الالتقاء والتوافق بين المسلمين والنصارى، وبخاصة حين يجمعهم نطاق جغرافي واحد، ومثال ذلك مدينة بانياس التي قال عنها: "هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين... ولها محرث واسع في بطحاء متصلة، وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين، لهم في ذلك حدّ يعرف بحدّ المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجري بينهما فيها"(ناصر خسرو، د.ت، ٢٧٥).

كما أشار الرحالة فكرة التعايش والتسامح التي تجسّدت في أرقى صورة بين المسلمين والنصارى وذلك في سياق عن نصارى جبل لبنان، يقول: "ومن العجب أنّ النصارى ا اورين

لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون: هؤلاء ممن انقطع إلى الله عزّ وجلّ فتجب مشاركتهم"(ناصر خسرو، د.ت، ٢٥٩).

أشادَ ناصر خسرو بالجانب الإنساني الذي تميز به النصارى في هذا المكان من خلال خدمتهم واحترامهم للمسلمين، والجدير بالذكر أنه أُعجب بكذا بملك ووصفهم بأنّ شأنهم عجيب بحسن السيرة واستعماله للمسلمين في إدارة مملكته وحكمها، فهو كثير الثقة بالمسلمين، وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله، ومن عجيب شأنه أنه معجب بكل من يقرأ ويكتب بالعربية"(ناصر خسرو، د.ت، ٢٩٧، ٢٩٨).

مما سبق ذكره، يمكن القول أن ناصر خسرو استطاع أن يقدّم لنا صورة واضحة المعالم عن الذات المسلمة في المشرق، إضافة إلى ذلك أنه رصد بعض العادات الحميدة التي لاقت استحسانا كبيرا منه في الجهات المشرقية مع أنه في بعض الأحيان يبدي استياءه من بعض المعاملات السيئة فيدفعه ذلك إلى إصدار أحكام نقدية تعبر عن سخطه من هذه السلوكيات.

٥-٣- صورة المعتقدات والعادات الدينية عند خسرو:

اهتم ناصر خسرو في رحلته بنقل العادات والتقاليد والمعتقدات الدينية التي تتميز الشعوب والتي تنعكس على حياتهم، فهناك بعض العادات الحميدة التي نالت إعجابه، وتجلى ذلك في مقام حديثه عن مدينة " البصرة وأهلها "،حيث يقول: " وبهذه البلدة كثير من أهل الخير وأهلها هينون معتدلون، محبون للغرباء، مؤثرون للفقراء، فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زادا، لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة"..(ناصر خسرو ،د.ت، ٢٢٠) ، ومما أعجب به كذلك مدينة "نينوى " التي أشاد بالخصال النبيلة والمعاملة اللطيفة التي يتمتع ا أهل هذه البلدة، ولاسيما في معاملة الغرباء، ويظهر لك في قوله:" وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة، يستعملون أعمال البر، فلا تلقى منهم إلا ذا وجه طلق وكلمة لينة، ولهم كرامة للغرباء وإقبال عليهم، وعندهم اعتدال في جميع المعاملات"(ناصر خسرو، د.ت، ١١٢).

يوحي هذا القول على الصورة المشرقة التي استحسنها" ناصر خسرو "عن أهل هذه البلدة وما يتسمون به من كرم الضيافة وحسن المعاملة وطلاقة الوجه، وبخاصة في استقبال الغرباء.

ومن المشاهد والصفات المقيتة التي أنكرها ابن "جبير " ما ذكره عن أهل بغداد وذلك في قوله:" وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء، ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء، يزدرون الغرباء ،ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا أو عبادا سواهم"..(ناصر خسرو، د.ت ، ١٩٤).

كما أشار "ابن جبير" إلى بعض المعتقدات التي شدت انتباهه في المسجد الحرام، والمتمثلة في غسل البيت بماء زمزم، ويظهر ذلك في قوله: "فعند انسياب الماء عنه كان كثير من الرجال والنساء يبادرون إليه تبركا بغسل أوجههم وأيديهم فيه، وربما جمعوا منه في أوان قد أعدوها لذلك ن ولم يراعوا العلة التي غسل لها"..(ناصر خسرو، د.ت، ١١٢) ، ولعل إعجاب ناصر خسرو ذا المعتقد السائد في المسجد الحرام عائد التشبع بالثقافة الدينية التي عبرت عن بركة ماء زمزم.

٦ –الصورة الدينية المذهبية عند ابن جبير:

ما قام به الرحالة من تجوال إلى المشرق العربي والذي كان بدافع ديني، واكتشف من خلال ذلك أخبار وقضايا اجتماعية وعقائدية وعادات وتقاليد ومدى تمسك الشعوب بالدين وفي كل مره يحدث مقارنة ضمنية بين ذاته وبين الآخر سواء كان الآخر دينيا أو جغرافي (أي انتماء جغرافي غير موحد)...إلخ. إلاَّ أنَّا نرى موقفا أغدق فيه ابن جبير بذاتيته ورمى فيه بكامل ثقله، حيث وضع عنوان في رحلته المكتوبة 'لا إسلام إلَّا في المغرب' ومما ورد تحت هذا العنوان قوله: "وليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنَّه لا إسلام إلَّا ببلاد المغرب لأنَّهم على جادة واضحة، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء وبدع،(الرزاق. ١٩٩٩، ٤) وفرق ضالة وشيعا من عصم الله عز وجل من أهلها، كما أنَّه لا عدل ولا حقَّ ولا دين على وجهه إلَّا عند الموحدين، أعزهم الله فهم آخر أئمة العدل في الزمان. وكل من سواهم من الملوك في هذا الأوان فعلى غير الطريقة، يعشرون تجار المسلمين كأنَّهم ؛ من خلال ما ٢٤ أهل ذمة لديهم، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب، ويرتكبون طرائق من الظلم لم (ابن جبير. ب.ت، ١١٩) يسمع بمثلها" أوردنا في هذا النص الذي تكلم فيه ابن جبير عن الإسلام في المغرب الذي يمثل في نظره الإسلام الصحيح الذي على الجادة والطريقة المستقيمة، ذاكرا ومقارنا المشارقة وكيفية تعاملهم مع الدين الإسلامي الذي يمثل لهم مجرد كلمة توحيد يتلفظ بها، أما الدين الحقيقي أو الإسلامي الحق هو ما وجد في المغرب وما تمثلته الدولة الموحدية التي اعتبرها رمز للعدل والحكم الراشد في هذا الزمان متعرضا لظلم الحكام المشارقة للرعية والتجار المسلمين الذين أرهقوهم بالضرائب وسلب أموالهم من دون أسباب. وتتراء لنا هنا الصورة الذاتية للشخصية المغربية التي رسمها ابن جبير والتي تتمثل في تمسكها بالدين الإسلامي السليم واعتبرها رمزا للحكم العادل، في حين وضع الصورة المعاكسة للآخر المشرقي فالأنا والآخر تضيف وتتسع عند ابن جبير، فالأنا قد يكون آخرا في بعض الموقف، والآخر قد يكون أنا في مواقف أخرى.

يستطيع قارئ رحلة ابن جبير أن يلاحظ العاطفة الدينية القوية التي تظهر كسمة عامة في توصيفات ابن جبير لجميع ما شاهده وزاره أثناء رحلته في المشرق الإسلامي.

فابن جبير الأندلسي الذي كان معاصراً لذروة) (الاصفهاني.٢٠١٣، ١٤، ١٥)حركة الاسترداد(النصرانية في شبه الجزيرة الايبرية، وجد نفسه عند قدومه إلى المشرق الإسلامي مواجهاً لحركة الغزوات الصليبية الأوروبية التي اقتطعت أجزاء من بلاد الشام الإسلامية وحولتها إلى ممالك ومعاقل صليبية مسيحية.

كان من الطبيعي إذن – والحال كذلك – أن تسيطر العاطفة الدينية على)ابن جبير(، وأن تتملكه نزعة دينية إسلامية خالصة صبغت بها توصيفاته لما شاهده. أولى الملاحظات المميزة لمشاهدات)ابن جبير(التي تأثرت بنزعته الدينية، تمثلت في استخدامه لمصطلحات ذات أبعاد دينية واضحة أثناء توصيفه للأحداث أو الوقائع أو المزارات والأشخاص، فهو لا يذكر العدو الصليبي إلا ويردف ذكره بالدعوة عليه بقوله)دمره الله(أو)أهلكه الله (وهو عند حديثه عن صقلية)(التي سقطت في يد)اللومبارديون(يذكرها قائلاً)أعادها الله تعالى(قاصداً بذلك أن تعود مرة أخرى إلى الحكم الإسلامي.

الملاحظة الثانية التي تتعلق بالنزعة الدينية – المذهبية عند ابن جبير، هي ميله لإظهار احترامه وتبجيله لرموز وعلماء أهل السنة والجماعة في المشرق الإسلامي، فهو في الكثير من المواضع في كتابه يترحم على أئمة السنة من أمثال)أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل(وي ظهر تقديره لهم.

ولعل من اللافت للنظر في تلك الملاحظة ،أنها متوافقة مع التغيرات الدينية – المذهبية التي كانت تمر بالدولة الموحدية الحاكمة في بلاد المغرب والأندلس في تلك المرحلة ، فقد كان الموحدون في أواس ونهايات القرن السادس الهجري ، يقومون بعملية تغيير واسعة على النطاق الفكري والعقائدي المؤسس لدولتهم، ففي عهد)أبي يعقوب المنصور(وابنه)الناصر(اتجهت الدولة الموحدية ومالت إلى انتهاج النهج السني المتمثل في)المذهب الظاهري(لابن حزم، واستعاضت الدولة بذلك النهج عن النهج الموحدي الأصيل التي قامت عليه الدولة في أساسها، وتم ذلك بالتراجع عن بعض العقائد التي نادى بها)المهدى بن تومرت(مثل عقائد المهدية والعصمة، وهكذا بدأت الدولة الموحدية في الاقتراب شيئ اً فشئياً من النهج السني، ولابد أن)ابن جبير(قد تأثر بحالة التغير الفكري تلك بشكل كبير ،خصوصاً وأنه كان قريب جداً من دوائر السلطة الموحدية. (تومرت. ب.ت، ١١،١٢)

الملاحظة الثالثة، تتعلق بالبعد الصوفي)التقليدي(في شخصية)ابن جبير(المذهبية، فهو عند زيارته لمصر، يصف المشهد الحسيني في القاهرة ،ويقر بدفن رأس الحسين فيه، ويصف إقبال الناس على التمسح والتبرك بـ القبر الذي يصفه بـ)المبارك(، كما يصف تربته بـ

)المقدسة(وفي تلك الأوصاف ما ي فهم منه أن ابن جبير كان يقر ويعتقد بما كان يفعله الناس عند المشهد الحسيني.

ولكن من المهم هنا أن نلاحظ أن صوفية ابن جبير كانت صوفية تقليدية وأنها كانت قريبة الصلة بالمذهب السني ،فهي صوفية منضبطة بمعايير السنة، وليس لها الطابع الروحاني أو العرفاني الموجود في صوفية)ناصر خسرو(مثلاً، والتي أشرنا لها في المبحث السابق.

الملمح الرابع للنزعة المذهبية عند)ابن جبير(يتمثل في عدائه الشديد لكل ما هو)شيعي(أو حتى قريب الصلة بالتشيع، إلى الحد الذي جعله في الكثير من المواقف يتحامل كثيراً على الشيعة.(تومرت. ب.ت، ١١،١٢)

٧-خاتمة:

بناء على ما سبق ذكره في هذه الدراسة تم التوصل إلى مجموعة من النتائج أهمها:

-إن رحلة "ناصر خسرو" اشتملت على مختلف الملامح الدينية التي تمثلت في وصف الأماكن المقدسة والإشادة ببعض الرموز الدينية، وكذا التطرق لأهم العادات الدينية لاسيما في مواسم الحج وشهر رمضان.

-ساهمت رحلته في كشف خصوصية كل مجتمع وأساليبه الحياتية وطقوسه الشعبية.

-بروز اللباس كشكل من الأشكال المعبرة عن الوضع الاجتماعي السائد لدى الشعوب وبخاصة في المناسبات كالأعراس والأعياد وغيرها.

-رصد الرحالة لصورة المذهبية وانعكاسها على الحياة اليومية عند بعض المجتمعات، وإبراز دورها الفعال في الحفاظ على النسيج الاجتماعي من التمزق والتشتت.

-اعتماد الرحالتان على أسلوب قصصي مشوق ولغة أدبية ممزوجة بانطباعات الرحالة لاسيما في نقل الأحوال الاجتماعية التي شدت انتباهه.

-سعى "ناصر خسرو" من خلال رحلته إلى إبراز مواطن التلاقي والاختلاف بين الأنا والآخر، ومدى تأثير ذلك في خلق جسور التواصل بين الحضارات والشعوب اما" ابن جبير" فكانت الصور مشتتة .

٨ -قائمة المصادر والمراجع:

١.القبادياني. ناصر خسرو (د.ت). رحلة ابن جبير (الإصدار د .ط). بيروت، لبنان.

٢.أبو سعد، أحمد(١٩٦١.). أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي (الإصدار ط١). بيروت، لبنان: دار الشروق الجديدة.

٣.حسن. زكي محمد (١٩٣٧). كنوز الفاطميين ، القاهرة.

٤.سليمان ذياب، تقوى(٢٠٠٦.)، أدب الرحلة في العصر العباسي في القرنين الرابع والخامس هجري، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية ، إشراف عبد الجليل عبد المهدي ،جامعة اليرموك.

٥.الشوابكة، نوال عبد الرحمن(٢٠٠٨.). أدب الرحلة الى الحج حتى القرن التاسع الهجري (الإصدار ط١). عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع.

٦.قنديل، فؤاد(٢٠٠٢.). الرحلة في التراث العربي، (الإصدار ط٢)، القاهرة، مصر: مكتبة الدار العربية للكتاب.

٧.لطفي، عبد الحميد. (د.ت). علم الاجتماع (الإصدار د. ط). بيروت، لبنان: دار النهضة.

٨.وهبة، مجدي، ومهندس، كامل(١٩٤٨.). معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب (الإصدار ط٢).

٩.الموافي، ناصر عبد الرزاق .(١٩٩٥). الرحلة في الأدب العربي حتى اية القرن الرابع (الإصدار ط١). القاهرة ،مصر: دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء للطباعة والتوزيع.

List of sources and references:

1-Al-Qubadiani. Nasir Khusraw (d.d.). The Journey of Ibn Jubayr (ed. 1st edition). Beirut, Lebanon.

2- Abu Saad, Ahmed (1961). Travel literature and its development in Arabic literature (1st edition). Beirut, Lebanon: New Shorouk House.

3- Good. Zaki Muhammad (1937). Fatimid Treasures, Cairo.

4- Suleiman Dhiyab, Taqwa (2006), Travel Literature in the Abbasid Era in the Fourth and Fifth Centuries AH, a memorandum submitted to obtain a master's degree in the Arabic language, supervised by Abdul Jalil Abdul Mahdi, Yarmouk University.

5-Al-Shawabkeh, Nawal Abdel-Rahman (2008). Literature of the journey to Hajj until the ninth century AH (1st edition). Amman: Dar Al-Mamoun for Publishing and Distribution.

6-Qandil, Fouad (2002). The Journey in the Arab Heritage, (2nd edition), Cairo, Egypt: Arab House Library.

7-Lotfi, Abdel Hamid. (d.t.). Sociology (Ed. I). Beirut, Lebanon: Dar Al Nahda.

8- Wahba, Magdy, and Muhandis, Kamel (1948). A dictionary of Arabic terms in language and literature (2nd edition).

9- Al-Mawafi, Nasser Abdel-Razzaq. (1995). The journey in Arabic literature until the fourth century (1st edition). Cairo, Egypt: Egyptian Universities Publishing House, Al-Wafa Library for Printing and Distribution.